نخبة الفكر

١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

"وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم"

للشيخ/ عمر محمود أبو قتادة

" وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم"

للشيخ/ عمر محمود أبو قتادة (حفظه الله)

نُخْبَةُ الْفِكْرْ

جمادى الأول 1436 هـ – مارس 2015 م

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:-

فمن المعلوم أن الله -تعالى- قرر أن هذه الأُمَّة أُمَّةٌ واحدة {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} وجاء هذا المعنى من اقتران عبادة الله وحده بتوحيد الأُمَّة واجتماعها في قوله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} وهذه الآية فيها بيان اخية الاجتماع وهو حبل الله -تعالى-.

وحبل الله: أوامره وشرعه وهديه.

ومن المعلوم أن هذا الدين دين الله، وأن الناس جميعًا خلقوا من آدم وآدم من تراب، وما جُعلت القبائل والشعوب إلا من أجل قيمة التعارف لا غير، فهي لا تصلح لقيام أُمَّة ولا تحقيق صلاح ولا دفع ضرر كما قال -تعالى- {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} ثم ذكر بعدها مناط الفاعلية في الوجود فقال -سبحانه-: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

فهذه القبلية والعشائرية وهي لها أسبابها القَدَرية التي نيط بها أحكام شرعية معتبرة إلا الولاء والبراء، فهذه لا تصلح أبدًا في دين الله -تعالى- كما قال -سبحانه وتعالى-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} فحصر الأخوَّة بين الناس بالإيمان لا غير، ودين الله -تعالى- الذي أنزله على رسوله ﷺ لم يفرق بين الناس في شيء على أساس الأصل في العرق أو البلد أو اللون، فهذه لا تُعرف أبدًا في دين الله -تعالى-.

وإذْ الأمر كذلك وهو كذلك، فإن الله -تعالى- كلف هذه الأُمَّة تكاليف جماعية لا تقوم إلا بجماعةٍ مؤمنة لا جامع لها إلا هذا المصدر من قولك مؤمنة، وكما قال علماؤنا: تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية الاشتقاق، يعني أن أمر الله -تعالى- لهذه الأُمَّة لا يكون إلا باجتماعها على هذا المناط وهو الإيمان، وهذا لمن علم دين الله على حقيقته وربط بين الأمر الشرعي والأمر القَدَري أدرك أن وعود الله بالنصر والتمكين لا تكون إلا بقيام جماعة المسلمين على هذا الوفق والتدبير.

ومن تفكَّر في أقدار هذه الأُمَّة وتدبر في تفكير أعدائها ضدها رأى أنها عُوملت معاملةً واحدة وكِيد لها على وفق أنها كيان واحد، ومن قرأ تاريخ الصراع المعاصر بيننا وبين الغرب بدءًا من نابليون إلى يومنا هذا علم هذا جليًا؛ ولذلك كانت فكرة الخبيث نابليون هو فصل جناحَي الأُمَّة المسلمة بين أفريقيا وآسيا بكيان غريب عنها، ولذلك نشأ في ذهنه الوعد الذي يجهله الكثيرون لليهود وهو ما سمي بـ«وعد نابليون»، وهذا الأمر يعني أن قيام الأُمَّة المسلمة لا يكون إلا بالنظر اليها وحدة واحدة، وبداهة الرأي تعني أنه لا يمكن لقطر أن ينفلت من سلطان الجاهلية على انفراد دون حصول هبة الأُمَّة في أغلب أطرافها، والذين يريدون سلخ قسم واحد منها دون اهتزاز سلطان الجاهلية على المجموع هم واهمون، وبالنظر إلى أفكارهم نرى أنهم لا يفكرون بالشرع المنزل ليكون هو الفصل في قضايا السياسة والحياة وخاصة ما تعلق منها بموضوع العلاقات الخارجية؛ لأن هذا الجانب على الخصوص لا يمكن فيه تطبيق الشرع المنزل كما هو في كتاب الله –تعالى– وسيرة النبي ﷺ إلا بأن يكون الحكم لله في أغلب بلاد المسلمين ليتم الانعتاق من الجاهلية.

ولو تفكرتَ لرأيتَ عامة من يفكر قطريًا إنما همهم الأكبر تحقيق حلقة إصلاحية، زعموا، تحت سلطان الجاهلية تعمل من خلال قوانينه الكلية الجاثمة على صدر العالم، وأمّا من أراد دين الله –تعالى– وتحقيق مقاصد الإمامة في أي بلد من بلاد المسلمين فإنه لزومًا لا بُدَّ أن يفكر باعتبار المسلمين أُمَّة واحدة، وأن انعتاق حلقة من حلقات تجمعات المسلمين لا يكون إلا بنظر تام لجميع الأُمَّة المسلمة.

هناك من يتعامل تعاملًا ساذجًا غير سُنني مع واقع بلده، فهو يهمه الإصلاح الداخلي كما يقول، ونقول زعموا ووهموا حين يتصورون حدوث هذا الإصلاح دون البحث عن مقصد هذه الأُمَّة في كتاب الله، وذلك بأنها أمة الجهاد والدعوة إلى الله وقيادة العالم، هم يتصورون أنه يمكن لهم أن يرتقوا ببلدهم على غرار ما يرون من الدول الجاهلية الحديثة، فجلُّ مرادهم حلقة جاهلية محسنة في تصرفات حكامها، وترف حياتي، وسهولة معيشة، وأمّا مقاصد الدين من إقامة هذه الأُمَّة فلا يخطر لهم على بال، وشأن هؤلاء كمن يريد أن ينظف شيئًا ساقطًا في القاذورات وهو مقيم في داخل حفرتها، كما ينسون ما كتبه الله من قاعدة الحياة الطيبة لأهل الإيمان لا تكون إلا بإقامة شرعه كما قال –تعالى–: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} والعمل الصالح ليس بمفهوم الجهلة لكنه بتفسير القرآن له كما قال –تعالى–: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} وكما قال –تعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}

ومن تفكر بالارتباط السُني بين شرع الله وقدره يرى أن الله يريد لهذه الأُمَّة أمر خير؛ لأنها أُمَّة مرحومة كما في الحديث، فهذا ربنا يجري من الأقدار العظيمة لتحقيق هذا المقصد، وهو أن أُمَّة الإسلام تنتفض جهادًا في أقطارٍ عدة، والبقية ليست إلا منتظرة لهذا القَدَر الإلهي العظيم وذلك لتحقيق الإسلام كما أمر الله، ولكن بعض الذي غلبت عليهم مفاهيم الجاهلية يأبون إلا العمل من خلال قانون ما مسخ عقولهم وأفسد تصوراتهم وهو واقع الجاهلية المصنوع على عينها، ومن أجل خدمة مقاصدها، وذلك بالتعامل مع مقاصد الدين ضمن قانون الجاهلية، وهذا لا يغضب الجاهلية ولا سدنتها، وهم أذكى من أن يعارضوا هذا الاتجاه بل سيدعمونه وينصرونه، أي أن تكون مسلمًا في وضعك الداخلي مع كفرك في شأنك الخارجي وهو الذي يهم منظومة الجاهلية الأكبر؛ لأنك حينها كالشيطان يقال له: لن تعدو قدرك، فما أنت شئتَ أم أبَيْتَ إلا خادمًا لنا وتحت سلطاننا، وأمّا شأنك مع نفسك فهذا لا يضرنا. وهذا هو أصلًا مفهوم العَلمانية في تجلياتها الذكية لاصطلام المسلمين.

بقيت قضية لا بُدَّ من اعتبارها من وجهين أولاهما: ما الخطوط الحمر الأخرى لدى الجاهلية غير دخولك وجوبًا في منظومتها الكلية باعتبار القانون الدولي مع بعض الرتوش في السلطان الداخلي؟

الجواب هو: القضية الفلسطينية.

إن من أهم ما ينظر إليه سلطان الجاهلية الأكبر ليقيم الحلقة الآبقة من الحلقة المطيعة، وبالتالي يتعامل على وفقها إحسانًا أو عقوبة إنما هو القضية الفلسطينية، ومن لم يفقه هذا فهو بحاجة إلى دروس في السياسة والتاريخ؛ ذلك لأن اليهود لهم العلو اليوم، وهذا لا يحتاج إلى برهان، فقضيتهم يجب أن تبقى أصلًا في تقييم الدول والجماعات، ثم إن المسألة اليهودية التي شغلت العالم الغربي طويلًا وكتب فيها مفكروهم الكلام الكثير وشغلت ضمائرهم الميتة لم تحل بحسب قادتهم من نابليون إلى بلفور، وهي حاضرة على طاولة كل رئيس غربي يراقبها ويرعاها لأنها ركن وجوده السياسي، ثم لقضايا أخرى تتعلق عند الكثيرين بالاعتقاد كما هو اعتقاد بعض النصارى بفكرة «هرمجدون» ونهاية العالم، ولأسباب مهمة كثيرة تحتاج بنفسها إلى مصنف مستقل.

فارتباط تحقيق الإسلام في دولة من الدول والقضية الفلسطينية ليس بسبب المخيال الاجتماعي في الشعوب المسلمة كما يريد البعض تصويرها، بل لأن الإسلام بمفهومه الحقيقي لا يكون في دولة إلا بأن تتحقق رؤية الوجود كله من خلال هذا الدين. هذا باعتبار نظرة الخارج لهذه القضية.

وأمّا باعتبار التصور الإسلامي فإنه قد تَقَدَّم أن الإسلام لا يكون حقيقة في الأُمم إلا بإسلام الحكم لله -تعالى-، ولا يكون إلا بما تَقَدَّم من تحقيق الإيمان بمفهومه القرآني لا بمفهومه الجاهلي المعاصر، وبما تقدم من ارتباط الأمر الشرعي بالقَدَري، وأنه لا أمان ولا حياة طيبة دون تحقيق شرع الله -تعالى-، والقضية ليس كما يتصوَّرها البعض تكون على مراحل، نبدأ بالفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم ثم الدولة المسلمة، فيسحبون هذا المفهوم على تحقيق الدولة المسلمة الواحدة ثم ننطلق بعدها لغيرها.

إن هؤلاء من عجائب هذا الوجود، وغرائب هذا الزمن، إذْ نراهم تحمر أنوفهم وتنتفخ أوداجهم إذا ذُكر أمامهم وجود المهاجرين المسلمين المجاهدين لنصرتهم ضد طاغوت بلادهم، وهم على استعداد بدخول صفقات خبيثة قذرة مع طواغيت آخرين من أجل بيع هؤلاء المجاهدين، ويتمنون لو أنهم يرحلون إلى البحر والغرق فيه! فمن كان كذلك؛ أحقًا هو يفكر فيما بعد سقوط طاغوت بلاده؟!

إن هذه العنصرية الجاهلية مختصفية في تلافيف العقل لديهم، وعندهم استعلاء القُطرية الذي نعرفه من هذه النفوس، وهم لا ينتبهون إلى أنهم صناعة الجاهلية، وهم كذلك مادة الشيطان في إبطال مقاصد الجهاد، وبيئتهم أصلح ما تكون لغرس الكافر النكد وتطبيق مؤامراته ضد الجهاد وأهله.

نعم، هم يتخفون بالمرحلية وعدم القدرة على المواجهة التامة لقضايا المسلمين، لكن الحقيقة غير ذلك، وهذا ليس بحثًا في النوايا لكنها قراءةٌ في الواقع الذي يراه أهل الإسلام منهم.

كان من سعي العقلاء أن يتجنب الجهاد في بلاد الشام حمل إرث التيار الجهادي في تاريخه والذي حمل به الكثير من الأعداء والقضايا الخطيرة، لكن القدر الإلهي كان له تدبير آخر، وذلك على قاعدة القرآن: {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} فكان ما كان من أن يكون الجهاد في سورية هو ملتقى الجهاد الذي يريد الله فيه أن ينصر دينه ويحقق وعوده رغم أنوف العقلاء بله العامة، وها هو يتحول بعناية من الله -تعالى- إلى مواجهة كل الجاهلية وجهًا لوجه، إذا انتهت حربهم ضدنا بالوكالة والقادم أعظم والدلائل تشير إليه، فما الذي يدعو هؤلاء العنصريون لحدودهم أن يرتكسوا إلى الخلف ومستنقع الجاهلية؟! الجواب معلوم، إنهم يعملون ضمن خطوط أعداء الجهاد ومقاصده العظمى.

وختامًا، فإن التخفي وراء المصالح الموهومة والكلمات الجميلة من دعوى المرحلية، وترك المواجهات التي لا نقدر عليها تأجيلًا لحال القدرة فنقول: هذا يمكن الإعذار به قبل أن يصل الجهاد في سورية الشام وغيرها إلى ما وصل إليه، فشئتم أم أبيتم صارت أرض الشام وهي أرض الإسلام قبل أن تكون أرضكم، وهي أرض الوعود النبوية قبل أن تكون صناعة قراراتكم، ملتقى آمال أهل الإسلام في تحقيق الخلافة النبوية الراشدة، وإزالة الغربة الثانية، فإن هداكم الله ارتفعتم لهذه الوعود، وإن شئتم أخلدتم إلى الأرض فذهبتم إلى مستقر أمثالكم في التاريخ.

والله الموفق، والحمد لله رب العالمين.